مجلة الاجتهاد للدراسات القانونية والاقتصادية ISSN: 2335-1039
المجلد: 15 العدد: 02 السنة 2026 ص 567 - 593

تاريخ الإرسال:28-11-2025 تاريخ القبول:06-02-2026

قراءة في نتائج حرب غزة 2023 وتداعياتها على المشروع الصهيوني مع إشارة مهمّة لعملية "طوفان الأقصى"

An analysis of the results of the 2023 Gaza War and its repercussions on the Zionist project, with significant reference to Operation "Al-Aqsa Flood

د. محمد عبد الحفيظ الشيخ*

قسم العلوم السياسية، الأكاديمية الليبية للدراسات العليا، (ليبيا)

m.alshiekh@academy.edu.ly

htpps://orcid.org/0009-0006-2935-7929

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على نتائج الحرب الإسرائيلية على غزة أكتوبر 2023، وتداعياتها على المشروع الصهيوني. إن سقوط هذا المشروع ودحره من الأراضي الفلسطينية المحتلة يظل ذو أهمية استراتيجية ليس في حسابات استحقاق المشروع الوطني الفلسطيني فحسب، وإنما للدول العربية أيضاً، فأي مكاسب ذات طابع استراتيجي تحققها المقاومة الفلسطينية يقابلها تراجع وانكفاء في المشروع الصهيوني. كانت نتائج غزة كارثية بكل المقاييس، وفي إشارة مهمّة لعملية طوفان الأقصى التي شكّلت نقطة تحول مهمّة في تاريخ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، تمثلت في توجيه ضربة قاصمة للكيان الإسرائيلي، أعادت على إثرها القضية الفلسطينية بزخم إلى واجهة الاهتمام الدولي في وقت وصلت فيه إلى مرحلة التهميش والتجاهل، وبرزت نتائج العملية بإعلان الدول الأوروبية اعترافها بدولة فلسطينية مستقلة، بينما تبحث دول أخرى اتخاذ خطوات مماثلة، وهذا مكسب مهم يضاف إلى جملة المكاسب الاستراتيجية التي حققتها العملية على مستوى الداخل الفلسطيني.

---

*المؤلف المرسل

الكلمات المفتاحية: المشروع الصهيوني، حرب غزة، طوفان الأقصى، الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، القضية الفلسطينية

Abstract :

This research intends to determine the outcomes of the Israeli conflict in Gaza in October 2023 and its implications for the Zionist agenda. The failure of this project and its setbacks in the occupied Palestinian territories hold strategic significance not only for the Palestinian national project's legitimacy but also for the Arab nations. Every strategic victory secured by the Palestinian resistance results in a downturn and setback for the Zionist endeavor. The outcome in Gaza was disastrous by any standard, and in a significant nod to the Al-Aqsa Flood operation, which marked a crucial shift in the Palestinian-Israeli conflict's history, it delivered a severe blow to the Israeli state, revitalizing the Palestinian cause and putting it back at the center of global focus during a time when it had become sidelined and overlooked. The outcomes of the operation were emphasized by European nations announcing their acknowledgment of an independent Palestinian state, with additional countries contemplating similar actions. This is a significant achievement that enhances the list of strategic victories accomplished by the operation within the Palestinian territory.

Keywords: The Zionist project, the Al-Aqsa flood, the Israeli-Palestinian conflict, Palestinian resistance.

مقدمة:

مع بقاء المشروع الصهيوني وتمدده في الأراضي الفلسطينية وتحديداً في الضفة الغربية وقطاع غزة، في ظل تعاظم قوة إسرائيل المدعومة من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وغيرها، كل ذلك سوف يدفع إسرائيل نحو الالتفات والتمدد إلى باقي الدول العربية المجاورة للأراضي الفلسطينية المحتلة وهو ما يعني تهديد ليس للمشروع الوطني الفلسطيني فحسب، وإنما للمصالح الحيوية والمصيرية للدول العربية والمنطقة برمتها، من منطلق أن الوجود الصهيوني هو أساس كل المشكلات

التي تعصف بالمنطقة العربية وتهدد الاستقرار والسلم الدوليين، وأن تحقيق الرخاء والاستقرار المنشود يتوقف على التخلص من الوجود الصهيوني وعقيدته الاحتلالية العنصرية باحتلاله للأراضي الفلسطينية وأراضٍ عربية أخرى. وهذا يأتي ضمن سياق المخطط الصهيوني الذي تم الإعداد له منذ النكبة عام 1948.

وفي ظل هذه المعطيات لا يمكن أن تنعم الدول العربية بمصادر قوتها الاقتصادية والتنموية أو يتحقق الأمن والاستقرار في المدى البعيد. وبالتالي، فإن تحقيق أي مكاسب على حساب المشروع الصهيوني ودحره، يظل ذو أهمية استراتيجية في الحسابات الوطنية الفلسطينية وللدول العربية التحررية التي تتشارك مع الشعب الفلسطيني همومه ومحنته، ولا مجال هنا للموازنة بين حسابات الربح والخسارة.

وفي إشارة مهمّة إلى معركة طوفان الأقصى التي مثّلت استثناء بكل المقاييس، مقارنة بما سبقتها من مواجهات عسكرية خاضتها فصائل المقاومة الفلسطينية في غزة ضد جيش الاحتلال الإسرائيلي خلال العقدين الأخيرين، نظراً لما أحدثته هذه العملية من تحول نوعي في مسار واستراتيجيات المقاومة الفلسطينية على مستوى المواجهة بعدما قلبت الطاولة على الكيان الصهيوني، أسهمت لاحقاً في تخريب بنيان منظومته الأمنية والعسكرية وبيّنت هشاشته، ومن ثم، انكشافه أمام ضربات المقاومة الفلسطينية، وفي الوقت نفسه، خسرت إسرائيل الرأي العالمي والغربي معاً، وتهشّمت سمعتها، وباتت منبوذة أكثر، بعد أن اقترفت ما هو أسوأ وأنكأ، جراء ممارساتها غير الإنسانية بحرب الإبادة الجماعية التي ترتكبها ضد سكان قطاع غزة منذ أكتوبر 2023.

تهدف هذه الدراسة إلى رصد مؤشرات تضعضع المشروع الصهيوني التي تلقي بظلالها حتماً على وجهة الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني ومساراته المحتملة والتحديات الماثلة أمام هذا المشروع، وهو ما يدفعنا إلى طرح السؤال الرئيس الآتي: هل ما زال المشروع الصهيوني قادراً على الاستمرار في القيام بأدواره الوظيفية كمشروع استعماري مُجدي وآمن للغرب والمستوطنين أم أن تكلفة بقائه لا تعدو أن

تكون مسألة وقت في ظل تنامي قدرات فصائل المقاومة الفلسطينية النوعية التي باتت تتجاوز قدرة الكيان الصهيوني على تحملها؟

وينبثق من هذا السؤال الرئيس عدة أسئلة فرعية، تتمثل في الآتي: ما هي أثار حرب غزة أكتوبر 2023 وتداعياتها على المشروع الصهيوني؟ وما هي التحديات الماثلة أمام استمرار وبقاء هذا المشروع؟ وهل من مكاسب استراتيجية فلسطينياً وعربياً متحققة ما بعد عملية "طوفان الأقصى"؟

وهنا تفترض الدراسة أن الحرب الإسرائيلية على غزة أكتوبر 2023 شكّلت نقطة تحول مهمّة في تاريخ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، تمثلت في تراجع المشروع الصهيوني بعد توجيه طوفان الأقصى ضربة قاصمة للكيان الإسرائيلي أعادت القضية الفلسطينية بزخم إلى واجهة الاهتمام الدولي في وقت وصلت فيه إلى مرحلة التهميش والتجاهل.

أولاً: قراءة في مؤشرات تراجع وانكفاء المشروع الصهيوني

بعد أكثر من سبعة عقود مضت على تأسيس الكيان الصهيوني، المدعوم بقوة من الغرب وتحديداً الولايات المتحدة وبريطانيا، وبما توفر لديه من مقومات القوة الاقتصادية والإعلامية، ومن ثم، التأثير بمراكز صناعة القرار العالمي المختلفة، فضلاً عن امتلاك هذا الكيان الاستعماري للأسلحة المتطورة والفتاكة من قنابل ذرية وهيدروجينية وصواريخ وأقمار صناعية وغيرها. برغم من ذلك، لم ينعم المستوطنين اليهود فيه بالأمن والاستقرار، وبدأت تتوالى تباعاً مؤشرات انكفاء المشروع الصهيوني خلال العقدين الأخيرين. وهو ما دفعني إلى البحث في محاولة رصد مؤشرات هذا التراجع، مستنداً في ذلك إلى أهم آراء وتحليلات المؤرخين والمفكرين المختصين بالحركة الصهيونية الذين تناولوا هذا الحدث بشيء من التفصيل.

في عام 2003، كتب أبراهام يورغ الذي كان يشغل منصب رئيس الكنيست الإسرائيلي قائلاً:" هناك احتمال حقيقي أن يكون الجيل الصهيوني الحالي هو الجيل الأخير". وقد برر ذلك بأن نهاية المشروع الصهيوني الاستعماري الذي بدأ في القرن التاسع عشر قد اقتربت وباتت على اعتابنا، ولم يعد له مكان في القرن الحادي

والعشرين. استند يورغ في تحليله إلى أن ممارسات إسرائيل للعنف المفرط ضد الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، في محاولة للقضاء على المقاومة الفلسطينية لن تفلح، لأن سفك دماء الفلسطينيين لن ينتج عنه إلا المزيد من المقاومة، ونادى "يورغ" بالقضاء على نظام الفصل العنصري باعتباره الخيار الأفضل، غير ذلك، ستدفع الدولة الصهيونية ثمناً باهظاً على حد وصفه[1].

يتفق مع هذا الرأي المؤرخ والمفكر "عبد الوهاب المسيري" الذي توقع قبل عقدين مضت بنهاية إسرائيل وزوالها، قائلاً " إن المشروع الصهيوني لن يكون قادراً على حل مشكلة المقاومة الفلسطينية، وسينتهي به الحال أمام المصير ذاته لنظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، معللاً ذلك بأن جُل حركات التحرر على مرّ التاريخ لم تستطع أية قوة هزيمتها"[2]. وفي حروب التحرير لا يمكن هزيمة العدو وإنما إرهاقه حتى التسليم بالأمر الواقع، وتفيد دروس التاريخ بحتمية انتصار الشعوب المستعَمرة وانتزاعها لاستقلالها بعد كفاح ضد المستعمر الأجنبي، فالمقاومة الفيتنامية لم تهزم الجيش الأمريكي وإنما أرهقته وأفشلت كل مخططاته، وهو ما فعله الشعب الجزائري في نضاله ضد الاستعمار الفرنسي. ونتيجة إيمان المقاومة الفلسطينية بقضيتها المركزية واحتضان شعبها لها، فضلاً عن انتهاجها أساليب غير تقليدية في القتال، في كفاحها ضد إسرائيل، وصلت إلى نقطة تحوّل لم تعد الأخيرة قادرة على تحمّل تبعاتها وكل تكاليفها الباهظة، وهو ما سيدفع إسرائيل عاجلاً أم أجلاً للرضوخ لمطالب الشعب الفلسطيني وحقوقه المشروعة في بناء دولته المستقلة[3].

وفي سياق متصل، نشرت مجلة (فورين بولسي) في 5 يوليو 2010، مقالاً تحليلياً بعنوان "إسرائيل مشروع استيطاني فاشل"، انتهت فيه إلى أن مشروع الدولة اليهودية في فلسطين، هو مشروع فاشل وغير قابل للديمومة والاستمرار. وأن استمرار المشروع الصهيوني لأكثر من سبعة عقود لا يعود إلى نجاح المشروع في حد ذاته، بل إن السبب الجوهري والمفصلي في استمراره هو اعتماده كلياً على الدعم الخارجي الذي يأتي من الولايات المتحدة وبريطانيا، ولولا ذلك الدعم ما كانت إسرائيل موجودة أصلاً حتى يومنا هذا[4].

ضمن هذا الإطار، فإن بقاء إسرائيل بشكلها الحالي كمشروع استيطاني استعماري، لن يكتب له النجاح، وعليها أن تختار بين مسارين، إما أن تصبح دولة يعيش في كنفها كل المواطنين بلا تمييز، وعلى قدم المساواة في الحقوق والواجبات، أو البقاء في حالة صراع دائم مع العرب بشكل عام والفلسطينيين بشكل خاص. برغم أن إسرائيل تقدم نفسها كدولة ديمقراطية، لكن سياساتها الاستيطانية العنصرية على مدى العقود السبعة الماضية وعملها الدؤوب على جعل إسرائيل دولة قومية للشعب اليهودي، من خلال طمس الحقائق التاريخية ودحض الرواية العربية الإسلامية والحق الفلسطيني وضعت صورة هذا الكيان أمام مأزق تاريخي، ليس لمواقفه من العرب فحسب، وإنما لتمييزه بين اليهود أنفسهم، ومن أمثلة ذلك تهميش يهود الفلاشا الأحباش ويهود المشرق والمغرب الإسلامي، ناهيك عن ممارساتها العدوانية اليومية في مواجهة أبناء البلد الأصليين في كامل الأراضي الفلسطينية، وهذه حقائق تاريخية لم تستطع حكومات الكيان الإسرائيلي محوها[1]. وبحسب "ناثان وينستوك"، يرى بأن العقيدة الصهيونية تنبع أساساً من التسليم بعدم إمكانية خلق توافق ما بين اليهود وغيرهم، فالصهيونية تدعوا لهجرة كبيرة لبلاد غير متقدمة بهدف تأسيس دولة يهودية". وتمثل اليهودية ديانة قومية تعبّر عن ثقافة مستقلة ذات طابع متميز يختلف عن المجتمع الذي يحيط به[2].

من جانب آخر كتب "بول كريغ روبرتس" في 13 مايو 2016، وهو من شغل منصب نائب وزير المالية الأمريكي في إدارة الرئيس السابق رونالد ريغن، في مقال له " لا يوجد أدنى شك في أن فلسطين قد سُرقت من أصحابها، وهم اليوم يحاصرون في كانتونات، فهذه الممارسات لا تختلف مع ما فعلته الولايات المتحدة مع الهنود الحُمر سابقاً. وقال إن كل من يذكر هذه الحقيقة يتهمه اللوبي الإسرائيلي باللاسامية. إن توجيه الاتهام لكل شخص بهذه الصفة من قبل اللوبي الإسرائيلي دليل على أنه شخص يتمتع بمستوى أخلاقي رفيع لا مثيل له"[3].

ما مثّل منعطفاً جديداً في هذه الموضوع وبدأنا نتلمس ملامحه وبخاصة في وسائل الإعلام، ما جاء على لسان المؤرخ الإسرائيلي المناهض للصهيونية "إيلان بابيه" في بداية الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة، منذ 27 أكتوبر 2023، عندما قال "بأن إسرائيل ليست مجرد دولة، بل مشروع استيطاني إحلالي، وذهب بابيه في تصريحاته أبعد من ذلك، عندما أشار بالقول إلى "أننا نشهد حالياً بداية النهاية لهذا المشروع الصهيوني، مستنداً إلى مؤشرات عديدة اعتبرها إرهاصات انهيار الدولة العبرية"[1]. كما توقع العقيد المتقاعد في الجيش الفرنسي آلان كورفيز بقرب زوال إسرائيل قائلاً بأن الأحداث المأساوية التي تشهدها غزة منذ اندلاع طوفان الأقصى تشير إلى أن هذه الدولة الخارجة على القانون منذ تأسيسها ليس لها أي مستقبل"[2].

ولكي تتضح الأمور أكثر، ينبغي استحضار السياق الذي نتجت منه حكومة بنيامين نتنياهو التي جاءت في وقت يعاني فيه المجتمع الإسرائيلي من الهشاشة ومثقلاً بالمشكلات والأزمات الاقتصادية والاجتماعية، تطور الأمر إلى حالة من الانقسام والصراع بين ما يعرف "بـ الصهيونية العلمانية" والصهيونية الدينية"، وهو صراع كما يراه "بابيه" يمثل بداية النهاية للمشروع الصهيوني. في إشارة إلى أن حالة التماسك والوحدة الظاهرية للمجتمع الإسرائيلي التي نشهدها حالياً سوف تبدأ في التفكك والزوال بعد انتهاء الحرب القائمة على قطاع غزة، ثم سرعان ما يشتعل الصراع الديني العلماني مرة أخرى، وهو ما يكشف عن حجم التناقضات في جوهر الفكر الصهيوني[3]. وبحسب "بابيه" ربما لن تكون النهاية في المستقبل المنظور، فبداية زوال الصهيونية هي حقبة طويلة وخطيرة، وقد تستمر لعقود، لكنه اعتبرها المصير المحتوم الذي ينبغي الاستعداد والتحضير له من الآن"[5]. وربما هذا ما دفع جيل أنيجار في توصيف إسرائيل بدقة "قائلاً بأنها دولة انتحارية تخوض حرباً تدميرية من أجل البقاء"[4].

غير أن الجديد في هذه الرؤية ما أوردته صحيفة هآرتس العبرية في افتتاحية العدد الصادر في 2024/6/7، تعقيباً على ما جرى أثناء تنظيم مسيرة التفوق اليهودي (مسيرة الأعلام) التي ساد فيها شعارات الانتقام والموت للعرب وتصاعد الدعوات

لحرق مدنهم وقراهم، واستشهدت الصحيفة بما قاله سابقاً المفكر والمؤلف والناقد للمجتمع الإسرائيلي "يهوشع ليبوفيتش" (1903 ـ 1994). "إن العزة الوطنية والنشوة في أعقاب حرب الأيام الستة 1967، مؤقتة، وستنقلنا من نزعة قومية صاعدة إلى القومجية المتطرفة، أما المرحلة الثالثة ستكون الوحشية، بينما المرحلة الأخيرة ستمثل نهاية الصهيونية"[1].

ضمن هذا السياق، نادت هآرتس بضرورة تحرك الوسط الإسرائيلي من أجل العمل على استعادة هوامش المجتمع والحد من تصرفات اليهود المتطرفين، وحذرت الصحيفة في الوقت نفسه، بأنه إذا لم يتم محو وباء الاحتلال الخبيث من جسم الدولة، فإن انهيار إسرائيل ليست سوى مسألة وقت، في ظل المزاج العام السائد لدى غالبية المجتمع الإسرائيلي المتمثل في روح الانتقام بعدما تسللت إلى صفوف الجيش وأعضاء الكنيست والحكومة ووزراء ونواب، لعل أبرزهم وزير المالية بتسلئيل سموتريتش ووزيرة المواصلات ميري ريغف ووزير الأمن القومي بن غفير وهم كثر[2]. بل إن وزير التراث الإسرائيلي "عميحاي إلياهو" ذهب أبعد من ذلك عندما دعا إلى إلقاء قنبلة نووية على قطاع غزة، بعد إطلاق عملية طوفان الأقصى، مضيفاً أن القطاع يجب أن لا يبقى على وجه الأرض، وعلى إسرائيل إعادة إقامة المستوطنات فيه[3].

ثانياً: تحديات وجودية تواجه استمرار وبقاء المشروع الصهيوني

هناك العديد من التحديات التي تواجه بقاء المشروع الصهيوني واستمراره، لعل أبرزها ما يلي:

1. المشاكل المتعلقة بكيفية تحرر المواطنين وانعتاقهم من مآسير الموطن الأصلي، وقطع الصلة به. ارتبط تأسيس الدولة اليهودية على فكرة طرد الشعب الفلسطيني من أرضه. وقلما تجد قائداً صهيونياً لم يناد بطرد الفلسطينيين من وطنهم. وفي حرب 1948 مارست المنظمات الصهيونية والجيش الإسرائيلي ضد الفلسطينيين كل أشكال الترحيل القسري والتشريد، وباشرت بطرد 800 ألف فلسطيني من مدنهم وقراهم[4]. مقابل فتح الباب واسعاً أمام استقبال المهاجرين اليهود من شرق

أوروبا، فقد نجحت الحركة الصهيونية في جذب وتوطين الهجرة الكبيرة ليهود الاتحاد السوفياتي السابق في التسعينيات من القرن الماضي إلى الأراضي المحتلة. من خلال تقديم الحوافز والتسهيلات لتشجيع هجرة الإسرائيليين إليها، وقد نجم عن ذلك تضاعف عدد سكان إسرائيل، وأصبح الفلسطينيون لا يمثلون سوى أقلية، ومع ذلك ظل الشعور المتزايد أن العرب من الداخل باتوا يشكلون خطراً على أمن إسرائيل، حتى تعالت الأصوات مُطالبة بعملية تطهير عرقي جديد ضد الفلسطينيين أو إعادة ترسيم الحدود حتى تصبح الكثافة العربية خارج حدود الدولة اليهودية[1].

والجدير بالذكر أن الفلسطينيين الذي هاجروا بعد نكبة عام 1948، أقاموا في المخيمات القريبة على تخوم الضفة الغربية وغزة وجنوب لبنان والأردن، وبعد الاحتلال الإسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة، أصبح هؤلاء اللاجئين ضمن حدود الدولة التي تسعى إسرائيل للحفاظ عليها من البحر إلى النهر. على إثر ذلك، بدا الفلسطينيون يتساووا أو ربما أزيد قليلاً من عدد اليهود في فلسطين التاريخية. وهو ما أعاد مشكلة الديمغرافية إلى المربع الأول، وهذه سمة بارزة تعبر عن حجم وطبيعة المأزق الذي تعاني منه إسرائيل والتي تعتبر الهجرة إليها ركيزة أساسية لتعزيز العامل الديموغرافي، بعدما فشلت الحركة الصهيونية في القضاء على الشعب الفلسطيني وتهجير كل السكان الأصليين، وأصبح من تبقى منهم يشكّلون قوة ديمغرافية مؤثرة لا يستهان بها، وصل تعدادها إلى مليوني نسمة. وهو ما يعني انتقاء الشرط اللازم لبقاء إسرائيل. لذلك، لجأت إلى استخدام كل الممارسات القمعية ضد الفلسطينيين لدفعهم إلى الهجرة من بلدهم[2]. وهذا ما دفع نائب رئيس الأركان الإسرائيلي السابق "يائير غولان"، عندما صرح قائلاً: "بأن ممارسات حكومات بلاده تجاه الفلسطينيين لا تختلف عن النازية، وأن إسرائيل دولة فصل عنصري وليست دولة ديمقراطية كما تدّعي"، وهو ما أثار موجة سخط كبيرة ضده[3].

2. التحدي الثاني، لضمان ديمومة واستمرار المشروع الاستيطاني الصهيوني، يكمن في قبول البلدان المجاورة بشرعية هذا الكيان، وبرغم موجة التطبيع العربي وعقد اتفاقيات سلام مع إسرائيل، إلا أنها لم تحقق شرعية هذا الكيان، باعتبار أن

هذه الاتفاقيات عقدت مع أنظمة في مجملها لم تتأسس في إطار الشرعية المنبثقة من الإرادة الشعبية، فهذه الأنظمة تسعى لحماية نفسها والحفاظ على ديموميتها فقط، وسوف تنتهي كل الاتفاقيات مع سقوط هذه الأنظمة.

3. التحدي الثالث، وهو الأبرز، يتمثل في توفير الأمن والاستقرار للمستوطنين اليهود، وهو ما فشلت إسرائيل في تحقيقه حتى الآن، وبالتالي انتفاء أحد أهم شروط البقاء. لأن ذلك يضرب عمق العقيدة الصهيونية في مقتل، والتي تقوم على عنصر الإحلال وتشجيع الهجرة المكثفة إلى "أرض الميعاد"، والذي كان هاجس الوكالة اليهودية منذ تأسيسها عام 1922. حيث استند الكيان الصهيوني على عقيد أساسية مُفادها أنه لا يمكن أن يشعر اليهود بالأمان إلا من خلال وجودهم داخل دولة واحدة يسيطرون على حكومتها وقوانينها، إلا أن الإخفاق والفشل في الحفاظ على سلامة وأمن المستوطنين اليهود كان حليف إسرائيل، بعدما انتهجت سياسة العنف والاستيطان واحتلال أراضي الفلسطينيين وهدم منازلهم وتجريدهم من إنسانيتهم منذ تأسيسها قبل76 عاماً. وكان الأستاذ الجامعي المعروف "موشيه ليفوفيتش" قد حذر من أن السيطرة على الفلسطينيين ستدمر المجتمع الإسرائيلي أخلاقياً وتحوّله إلى نظام الفصل العنصري (أبارتهايد). وقد بدأت تتعالى مثل هذه الأصوات في الجامعات الأمريكية والأوروبية، كما نشطت الحركات المناهضة للاحتلال وأخرى من اليهود أنفسهم الذين باتوا يستشعرون الخطر على مستقبلهم من جراء ممارسات حكوماتهم العنصرية والمتطرفة تجاه الفلسطينيين[1].

وفي الرابع من نوفمبر 2022، كتب الصحفي والمحلل السياسي الأمريكي توماس فريدمان " إسرائيل التي عرفناها إلى زوال"، بعيد فوز الائتلاف الحكومي اليميني المتطرف الحاكم في إسرائيل بالانتخابات التشريعية آنذاك. وأضاف فريدمان أن الكثيرين لم يوافقوني الرأي، واعتقد أن التطورات الأخيرة في غزة أثبتت خطأهم بعد أن أصبح الوضع أسوأ من السابق، فإسرائيل اليوم تواجه خطراً وجودياً". وفي مقاله هذا الأسبوع بصحيفة نيويورك تايمز قال فريدمان تلك العبارة أن تكون بمثابة تحذير

للفت الانتباه إلى مدى تطرف ائتلاف نتنياهو واعتبر استمراره في الحكم كارثة كبرى على إسرائيل[1].

أردنا من خلال ذلك، محاولة رصد ملامح الأزمة الجديدة شديدة التعقيد والتشابك التي تعيش على وقعها إسرائيل وباتت تتجرع مرارتها على أكثر من صعيد، سواء السياسي منها أو الأمني أو العسكري أو الاقتصادي أو الديمغرافي. يبدو جلياً من خلال الشعور المتزايد لدى المستوطنين اليهود بمختلف توجهاتهم، بأن ظروف ومحددات الصراع مع المقاومة الفلسطينية بدأت في التغير بطريقة دراماتيكية ليست وفق حسابات إسرائيل وآمالها ورهاناتها. وفي الوقت نفسه، تشكل صدمة تعكس حالة التخبط والضياع غير المسبوقة التي تمر بها إسرائيل وعدم القدرة على تحقيق الحسم لصالحها، وفقدان القدرة على المفاضلة بين البدائل والخيارات المتاحة لديها بسلاسة اعتادت عليها في السابق. ومرد ذلك كله، هو أن المقاومة الفلسطينية تختلف كلياً ما بعد طوفان الأقصى من حيث أسلوب عملها وتعاطيها مع متغيرات المشهد الفلسطيني الداخلي من ناحية، فضلاً عن كونها الرقم الصعب الذي لا يمكن تجاهله في معادلة الصراع مع إسرائيل، لا سيّما وأنها باتت تمسك بخيوط اللعبة القائمة وتوجه بوصلتها بما يتوافق مع أهدافها المضادة للمشروع الصهيوني ومخططاته. فقد بدا واضحاً أن المكاسب التي تحققها المقاومة على أكثر من صعيد يقابلها تراجع وانكفاء في المشروع الصهيوني كنتيجة لأزمة حقيقية وحتمية لقوانين التدافع وهيبة الحضور وقواعد الصراع.

ثالثاً: في تراجع المشروع الصهيوني... المكاسب الاستراتيجية فلسطينياً وعربياً

منذ إطلاق عملية "طوفان الأقصى" في السابع من أكتوبر 2023، أثيرت علامات استفهام كثيرة حول الهدف من وراء هذه العملية وعن جدواها، وبدأت التساؤلات المطروحة على طاولة النقاش، تتجه نحو ماهية المكاسب التي حققتها المقاومة الفلسطينية من هجومها على إسرائيل، خصوصاً بعد رد فعل الأخيرة العنيف وغير المبرر على قطاع غزة، وما أسفر عنه من خسائر كبيرة في الأرواح طالت المدنيين من الأطفال والنساء والشيوخ، ناهيك عن تدمير القطاع بأكمله وتسوية المباني

بالأرض حتى أصبحت غزة مكان غير قابل للحياة، في ظل استمرار سياسة العقاب الجماعي التي تمارسها إسرائيل ضد أهل القطاع.

يبدو أن هناك بعض الأطراف وجدت الفرصة سانحة وبدأت تكيل الاتهامات إلى المقاومة الفلسطينية وتلقي باللوم على حركة حماس وتحمّلها المسؤولية عن كل ما جرى، وإن ما فعلته حماس كانت مغامرة غير محسوبة أو مدروسة بشكل كافئ، بالنظر إلى ما ترتب عنها من نتائج حتى اللحظة. برغم هول الحرب وتبعاتها على قطاع غزة وأهله على كل المستويات، من المهم الإشارة إلى صمود فصائل المقاومة وأهل غزة في هذه الحرب وإلى المكاسب الاستراتيجية التي حققتها، تمثلت في الآتي:

1. توجيه ضربة قاصمة إلى إسرائيل في عقر دارها لأول مرة منذ معارك النكبة عام 1948، وما نتج عنها من كسر هيبة إسرائيل وزعزعة مؤسساتها العسكرية والأمنية بشكل غير مسبوق، ومن ثم، تحلل وتلاشي أسطورة الجيش الذي لا يقهر والمتفوق على الآخرين. ذلك أن كل المواجهات العسكرية بين المقاومة الفلسطينية وجيش الاحتلال الإسرائيلي (2008 ـ 2021) كانت تدور رحاها في الأراضي الفلسطينية المحتلة في الضفة والقطاع، لكن هذه المرة، انتقلت المواجهات إلى العمق الإسرائيلي وباتت المستوطنات مكشوفة أمام كل أنواع الأسلحة التي بحوزة المقاومة وهي في الوقت نفسه، باتت ساحة المعركة، بعد أن نجحت المقاومة الفلسطينية في السيطرة عليها والتحصن فيها بل وقتل وأسر عدد كبير من جنود الاحتلال والمستوطنين، فقد أنتج ذلك مشاهد وصور سوف تظل راسخة في أذهان اليهود الصهاينة، من الصعوبة محوها أو حتى ترميمها خلال السنوات القادمة. وهذا يعدّ مكسب نجحت المقاومة الفلسطينية في تحقيقه لأول مرة طيلة العقود الماضية[1].

2. الثابت في هذه المرة أن طوفان الأقصى تعد واحدة من المحطات المهمّة في تاريخ حركة حماس منذ تأسيسها، تضاف إلى ما سبقتها من محطات، بعدما تحولت إلى كابوس بات يقضِ مضجع الإسرائيليين وسوف يظل يطاردهم لسنوات طويلة. بالنظر لما مثّلته هذه العملية من مباغثة وجرأة غير معهودة، وقدرة على الصمود، بعدما خاضت فصائل المقاومة حرباً طويلة دامت لأكثر من سنتين، وأخذ زمام

المبادرة في تنفيذ مجموعة من العمليات العسكرية الجريئة والمهمة من الأنفاق والبحر، زعزعت منظومة إسرائيل العسكرية والأمنية وخلخلت أركانها، وأربكت في الوقت نفسه، داعميها من القوى الإقليمية والدولية. فضلاً عن المكانة التي احتلتها فصائل المقاومة وزادت من شعبيتها داخلياً وخارجياً وأعادتها إلى مكان مهم ليس في مقاومة الاحتلال فحسب، وإنما في معادلة الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني[1].

3. إفشال خطط الكيان الصهيوني في تحقيق أي من الأهداف المُعلنة وغير المُعلنة التي وضعتها حكومة بنيامين نتنياهو منذ إعلان الحرب على غزة. حيث فشلت في تحقيق أي إنجاز سياسي مهم، بعدما فشلت إسرائيل فشلاً ذريعاً في كسر إرادة فصائل المقاومة الفلسطينية بشكل خاص، وأهل غزة بشكل خاص، بعد صبر وتحمل كل ويلات الحرب وثبات على الأرض فاق كل التوقعات. أثبتت فشل إسرائيل في استعادة قوة الردع، وأنها القوة التي لا يمكن اختراقها أمنياً وعسكرياً ومعلوماتياً، فبين عشية وضحاها وخلافاً لما تدعيه حكومة نتنياهو المتطرفة، فقد تغير النمط الإدراكي الإسرائيلي واهتزت صورتها التي لطالما روّجت لها وحرصت على تكريسها في الأذهان، بعدما أثبتت المقاومة الفلسطينية قدرة هائلة على التخطيط والتمويه والتضليل[2].

4. الإشارة إلى أن إسرائيل أنفقت أموالاً طائلة على بناء الجدار العزل، وبتمويل أمريكي وأوروبي، حتى ينعم المستوطنين اليهود بالأمن والأمان، لكن المقاومة الفلسطينية كان لها رأي آخر، بعدما أثبتت قدرة فائقة على اقتحامه في وقت قياسي والتسلل عبر الحدود وقتل وأسر أعداد كبيرة من الجنود والمستوطنين بصورة لم تحدث منذ حرب عام 1973، إذ لم نشهد سقوط مثل هذا العدد من القتلى والجرحى والأسرى منذ 50 عاماً سبقت. كل ذلك يثبت بما لا يدع مجالاً للشك عن فشل المشروع الصهيوني في تأسيس دولة آمنة ومستقرة[3].

5. يضاف إلى ذلك، الأزمة الاقتصادية التي تعرّضت لها إسرائيل، بصورة لا يمكن تصورها، وما يعنيه ذلك من خسائر لا حصر لها على القطاعات التجارية والاقتصادية المتنوعة خصوصاً قطاع السياحة، ناهيك عن ضرب بنيتها التحتية،

بعدما انهارت بورصتها بدرجة كبيرة، وسوف تتضح أكثر بعد الكشف النهائي لنتائج المعركة[1]. في مقارنة قبل إطلاق عملية طوفان الأقصى وما بعدها، ومن خلال الأرقام والإحصائيات، سيبدو الفارق واضحاً. فقد ذكرت وزارة المالية الإسرائيلية أنها سجلت عجزاً في الميزانية في كانون الأول/ديسمبر 2023 بلغ 33.8 شيكل أي ما يعادل 9 مليارات دولار، وبنحو 4.2% من الناتج المحلي الإجمالي، مقابل 18.5 مليار في عام 2022، ويعزى الأمر في ذلك، إلى زيادة الإنفاق الحكومي لتمويل الحرب ضد المقاومة الفلسطينية في غزة[2]. وفي الاتجاه ذاته، قدّر الخبير الاستراتيجي مودي شافيرز، في بنك "هيوعليم"، وهو أحد أكبر البنوك في إسرائيل، الخسائر في الميزانية الحالية بنحو 1.5 من الناتج المحلي الإجمالي بما لا يقل عن 27 مليار شيكل، أي ما يعادل 6.8 مليار دولار، وهو ما يمثل الخسارة الأعلى منذ حرب أكتوبر 1973[3].

6. ضمن هذا السياق تزايدت موجات الهجرة العكسية خلال السنوات الأخيرة، وبحسب صحيفة معاريف الإسرائيلية فقد بلغ عدد المستوطنين اليهود الذين غادروا إسرائيل حتى أواخر العام 2020 قرابة الـ 750 ألف للعيش في بلدان أخرى خصوصاً أوروبا وأمريكا، ليصل العدد إلى 900 ألف مع نهاية عام 2021[4]. ويعود ذلك إلى الصراعات السياسية داخل إسرائيل وتدهور الوضع الاقتصادي فضلاً عن التوترات الاجتماعية التي تزامنت مع إصرار حكومة نتنياهو على المضي قدماً في خطتها المثيرة للجدل لإدخال تعديلات على المنظومة القضائية[5].

7. في يوليو 2022 أجرت القناة 13 الإسرائيلية استطلاع للرأي، تبيّن أن نحو 30% من المستوطنين يفكرون في مغادرة الأراضي المحتلة. وبحسب بيانات سلطة السكان والهجرة الإسرائيلية، فقد غادر 370 ألف شخص منذ بدء عملية طوفان الأقصى في السابع من تشرين الأول/أكتوبر وحتى أواخر الشهر ذاته عام 2023، كما أفاد موقع "زمان إسرائيل"، بمغادرة قرابة 140 ألف إسرائيلي خلال شهر تشرين الثاني/نوفمبر من نفس العام، بينما لم تسجل أي حالات عودة لكل الذين غادروا

الأراضي المحتلة والبالغ عددهم الإجمالي 500 ألف منذ بداية الحرب الإسرائيلية على غزة[1].

في سياق متصل، أشار الباحث الفلسطيني جورج كرزم، في كتابه "الهجرة اليهودية المعاكسة ومستقبل الوجود الكولونيالي" إلى أن أكثر من نصف اليهود الإسرائيليين قد أعلنوا في ظروف سلمية عن تفكيرهم بالهجرة، وأن ما يقارب من 70% منهم يبدلون مساعيهم من أجل الحصول على جنسية بلدان أخرى[2]. وقد تصاعدت موجات الهجرة خارج إسرائيل بعد عملية اقتحام مستوطنات غلاف غزة، بشكل لافت، حيث لم يعد المشروع الصهيوني بالنسبة للمستوطنين معقل آمن يمكن الاعتماد عليه، وبحسب استطلاع رأي، أشار إلى أن يهود الغرب القاطنين في أمريكا وأوروبا هم أكثر سعادة من نظرائهم الذين يقطنون في الأراضي الفلسطينية المحتلة[1]. والحال بات أسوأ من السابق، خصوصاً بعد الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة. لقد كشفت معركة طوفان الأقصى عن قصور وضعف في بنية الكيان الصهيوني وفضحت كل المزاعم المزيفة والخداع التي يروّج لها قادته عن الأمن والاستقرار، وهو ما اتضح مع تزايد تدفقات الهجرة المعاكسة بفعل صدمة السابع من تشرين الأول/أكتوبر. فلا أمن ولا استقرار يدعو للبقاء، وهو ما يمثل عامل من عوامل الانهيار الداخلي لبنية وجود الكيان الصهيوني.

8. لا زال الاعتقاد السائد لدى غالبية المستوطنين اليهود على المستويين الرسمي والشعبي بلعنة عقد الثمانين، في إشارة واضحة إلى الروايات الإسرائيلية، أن غالبية ممالك بني إسرائيل بعد النبي سليمان انهارت خلال العقد الثامن، في إشارة إلى أن ارهاصات زوال دولة إسرائيل قد بدأت، وأن عمرها لا يختلف عن سابقاتها، ولن يتجاوز الـ 80 عاماً، أي قبل نهاية العقد الحالي، وبحسب اعتقادهم، فإن مؤشرات ذلك بدأت واضحة ما بعد معركة طوفان الأقصى[2].

9. في المنحى ذاته، أشار رئيس وزراء إسرائيل ووزير الدفاع سابقاً ايهود باراك خلال الفترة (1999 ـ 2001) في مقال له بصحيفة "يديعوت أحرونوت" إلى ذلك بالقول" على مر التاريخ، لم تعمّر لليهود دولة أكثر من ثمانية عقود، إلا في فترتين:

الأولى كانت في فترة الملك داود، أما الثانية فكانت في فترة الحشمونائيم، وفي كلتا الفترتين كانت بداية زوالها في العقد الثامن، وهو ما دعا "باراك" إلى ضرورة استخلاص الدروس والعبر من الانقسام والتشرذم اللذين عصفا بممالك اليهود السابقة، والتي بدأت بالانهيار مع العقد الثامن[1].

رابعاً: في إشارة مهمّة لمعادلة معركة "طوفان الأقصى"

عملية معركة طوفان الأقصى لها وقع مختلف عن كل سابقاتها في خط المواجهة مع إسرائيل، نظراً لما أحدثته هذه العملية من تحول نوعي في استراتيجيات فصائل المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة على مستوى المواجهة مع إسرائيل. بعدما كشفت المقاومة الفلسطينية في غزة أن نفسها الصراعي مع إسرائيل يتكئ على تنافسية عالية في الرؤية وعلى أرضية صلبة، حيث ترتكز هذه الرؤية بالدرجة الأساس على الداخل الفلسطيني المتمثل في صبر وثبات أهل قطاع غزة الذي أذهل العالم أجمع، فضلاً عن الدافعية التي يضخها أهل غزة في عروق أبناء المقاومة الباسلة. برغم جحم الحرب على غزة وضراوتها، وتكاليفها الباهظة، فقد بيّنت عن تصميم فصائل المقاومة الفلسطينية واستماتة في الدفاع عن الأرض في مسعى منها لفرض أمر واقع جديد على الأرض، فاق كل تصور، وتجاوز كل التوقعات[2].

في مقارنة قبل إطلاق عملية طوفان الأقصى وما بعدها، ومن خلال الأرقام والإحصائيات، سيبدو الفارق واضحاً. فقد ذكرت وزارة المالية الإسرائيلية أنها سجلت عجزاً في الميزانية في كانون الأول/ديسمبر 2023 بلغ 33.8 شيكل أي ما يعادل 9 مليارات دولار، وبنحو 4.2% من الناتج المحلي الإجمالي، مقابل 18.5 مليار في عام 2022، ويعزى الأمر في ذلك، إلى زيادة الإنفاق الحكومي لتمويل الحرب ضد المقاومة الفلسطينية في غزة[3].

وفي الاتجاه ذاته، قدّر الخبير الاستراتيجي مودي شافيرز، في بنك "هيوعليم"، وهو أحد أكبر البنوك في إسرائيل، الخسائر في الميزانية الحالية بنحو 1.5 من الناتج المحلي الإجمالي بما لا يقل عن 27 مليار شيكل، أي ما يعادل 6.8 مليار دولار، وهو ما يمثل الخسارة الأعلى منذ حرب أكتوبر 1973. ضمن هذا السياق تزايدت

موجات الهجرة العكسية خلال السنوات الأخيرة، وبحسب صحيفة معاريف الإسرائيلية فقد بلغ عدد المستوطنين اليهود الذين غادروا إسرائيل حتى أواخر العام 2020 قرابة الـ 750 ألف للعيش في بلدان أخرى خصوصاً أوروبا وأمريكا، ليصل العدد إلى 900 ألف مع نهاية عام 2021[1]. ويعود ذلك إلى الصراعات السياسية داخل إسرائيل وتدهور الوضع الاقتصادي فضلاً عن التوترات الاجتماعية التي تزامنت مع إصرار حكومة نتنياهو على المضي قدماً في خطتها المثيرة للجدل الرامية لإدخال تعديلات على المنظومة القضائية.

ووفقاً لتسجيلات أبو عبيدة الناطق باسم كتائب عزالدين القسام، الجناح العسكري لحركة حماس، إن الاحتلال تكبد خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد ربما تفوق في كلفتها ما تكبده في السابع من أكتوبر 2023. وإن المقاومة أخرجت عن الخدمة ما لا يقل عن 1000 آلية عسكرية إسرائيلية[2]. تمكنت المقاومة الفلسطينية من خلال هجوماً مباغثاً استهدف مواقع عسكرية ونقاط المراقبة الإسرائيلية المنتشرة على حدود غلاف غزة. وسيطرت على نحو 20 مستوطنة، كما أسفرت هذه العملية في اليوم الأول لإطلاقها عن مقتل 1200 بين العسكريين والمستوطنين اليهود، وإصابة نحو 3000 جريح، بينهم العديد من كبار الضباط، كما أسرت حركة حماس وفصائل المقاومة الأخرى نحو 130 إسرائيلياً[3].

في يوليو 2022 أجرت القناة 13 الإسرائيلية استطلاع للرأي، تبيّن أن نحو 30% من المستوطنين يفكرون في مغادرة الأراضي المحتلة. وبحسب بيانات سلطة السكان والهجرة الإسرائيلية، فقد غادر 370 ألف شخص منذ بدء عملية طوفان الأقصى في السابع من تشرين الأول/أكتوبر وحتى أواخر الشهر ذاته عام 2023، كما أفاد موقع "زمان إسرائيل"، بمغادرة قرابة 140 ألف إسرائيلي خلال شهر تشرين الثاني/نوفمبر من نفس العام، بينما لم تسجل أي حالات عودة لكل الذين غادروا الأراضي المحتلة والبالغ عددهم الإجمالي 500 ألف منذ بداية الحرب الإسرائيلية على غزة.

وفي ضوء متغيرات طوفان الأقصى، نجد المقاومة الفلسطينية في غزة، وتحديداً حركة حماس تناور في أكثر من صعيد وتواجه تحديات داخلية وخارجية، تواجه حماس انقسام السلطة الفلسطينية في الضفة ورؤيتها للصراع مع إسرائيل وتبعاته، ولا سيّما التعاون الأمني مع إسرائيل، وهو ما أضّر كثيراً بالمقاومة الفلسطينية، عدى عن تهاون غير مسبوق من أنظمة رسمية عربية متخاذلة عن نصرة الشعب الفلسطيني، ووقوفها في خندق معركة نتنياهو وغالانت وبن غفير، ضد المقاومة الفلسطينية، كما تعبئ حماس أدوات الصراع مع إسرائيل المدعومة بقوة من الغرب وتحديداً من الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا وفرنسا بكل المقومات السياسية والعسكرية والاقتصادية والإعلامية، وتجد حماس نفسها في مواجهة شاملة على طول المنطقة وعرضها، في ظل حصار خانق لقطاع غزة منذ عقدين، ناهيك عن وضع جيو استراتيجي سياسي وعسكري غير آمن ومستقر، وينذر بمخاطر جمة على المنطقة برمتها.

هذا السياق كان يفترض هدم حائط الصّد والعائق أمام الاحتلال في تحقيق أهدافه بالقضاء على المقاومة الفلسطينية وإنهائها في معقلها. وقد ذكر نائب رئيس المكتب السياسي لحركة حماس الشهيد "صالح العاروري الذي اغتالته إسرائيل في 2 يناير 2024، أنه لدى المقاومة معلومات تشير بأن الاحتلال الإسرائيلي كان يجهز لحرب كبيرة سوف يشنّها على قطاع غزة ومقاومتها في وقت قريب، لذلك، وجهت فصائل المقاومة الفلسطينية ضربة استباقية للكيان الإسرائيلي، وبالتالي، لم تكن طوفان الأقصى سوى رد فعل طبيعي على جرائم الاحتلال المتكررة على الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة[1]. هذه المؤشرات التي غابت عن الكثير من الساعين وراء تقييم عملية طوفان الأقصى، كفيلة بعدم إلقاء اللوم على المقاومة الفلسطينية فحسب أو تحميل حركة حماس المسؤولية عن إهدار دماء الشهداء وتدمير القطاع.

كل ذلك، أثار سجالات كثيرة حول الجدوى من وراء طوفان الأقصى، وما إذا كانت فعلاً حققت أهدافها التي أطلقت من أجلها. وباستحضار التكاليف الباهظة التي دفع ثمنها الشعب الفلسطيني في قطاع غزة، بعشرات الآلاف من الشهداء والجرحى من

النساء والأطفال والشيوخ، فضلاً عن التدمير الكلي وشبه الكامل للقطاع. ثمة من يرى مكاسب استراتيجية في إشارة مهمّة للعملية وإن الحرب التي تلتها لن تؤثر فيها التفاصيل اللاحقة، بغض النظر عن المسارات المستقبلية والمآلات النهائية للحرب التي دارت رحاها لسنتين. على النقيض من ذلك، لا يرى سوى الخسائر فقط في مسعى لسلب وانتقاص حقوق المقاومة الفلسطينية، للتقليل من إنجازاتها ومكاسبها التي أذّهلت الكيان الإسرائيلي وداعميه من الغرب والعرب على حد سواء.

وعليه، فهناك مكاسب استراتيجية تحققت لا يمكن بأي حال من الأحوال أنكارها، وتتمثل في نقاط جوهرية وحقائق جديرة بالاهتمام ينبغي استدعاؤها، لعل أهمها:

1. عدم وجود تكافؤ بين أطراف الحرب، فالحرب الدائرة ليست حرب نظامية بين دولتين وجيشين، وبالتالي يصعب معها حسابات الربح والخسارة بشكل مباشر، كونها عملية معقدة للغاية تفتقر لمعايير واضحة ومحددة. وفي خضم الحرب التي لم تضع أوزارها بعد، وهو ما يعني صعوبة تقييم نتائجها أو تحديد المكاسب والخسائر المباشرة قبل انتهاء الحرب الدائرة الآن في غزة. لكن بعد ثمانية أشهر على اندلاع الحرب، خرج نتنياهو منكسر ويصرخ منتقداً الرئيس بايدن، سنقف لوحدنا ولو اضطررنا سنحارب بأظافرنا، ما يدل على حجم الهواجس الإسرائيلية بعد التلويح الأمريكي بوقف دعم إسرائيل بالأسلحة.
2. إن تقييم نتائج الحرب وتبعاتها يظل كبيراً جداً، ولا يمكن بأي حال من الأحوال التقليل من مأساة أهلنا في قطاع غزة، فحجم الخسائر البشرية والمادية كبيرة في حالات حركات التحرر في ظل اختلال موازين القوى بين المقاومة الفلسطينية والمحتل. تؤكد دروس التاريخ، أن الشعوب تدفع ثمناً باهظاً من أجل الحرية، فالشعب الجزائري وبكل رضا قدّم مليون ونصف المليون من أبنائه من أجل نيل الاستقلال من الاستعمار الفرنسي، وما حدث في الجزائر يمكن أن ينسحب على باقي الشعوب في أفريقيا وآسيا، وغيرها وهو ما ينسحب على المقاومة الفلسطينية أيضاً في غزة التي تخوض معركة التحرير الوطني ضد الكيان الصهيوني.

ينبغي الإشارة إلى معركة طوفان الأقصى كونها أعادت طرح القضية الفلسطينية بقوة إلى واجهة الاهتمام الدولي بعدما وصلت إلى مرحلة التهميش والتجاهل. وقد اتضح ذلك من خلال التغير في الخطاب السياسي الأمريكي، فضلاً عن تراجع الرئيس الفرنسي عن فكرة تأسيس تحالف دولي على نمط التحالف الذي قضى على تنظيم الدولة الإسلامية "داعش"، كانت المهام الموكلة لهذا التحالف تتمثل في القضاء على حركة المقاومة الفلسطينية "حماس". كما طالبت نائبة رئيس الوزراء البلجيكية بفرض عقوبات على إسرائيل، كما تغير موقف الرئيس الكندي المنحاز كلياً للممارسات الإسرائيلية ضد الفلسطينيين. الأهم من كل ذلك، إعلان كل من إسبانيا وأيرلندا والنرويج رسمياً أنها ستعترف بدولة فلسطين وسيدخل حيز التنفيذ اعتباراً من 28 أيار 2024، وهو ما أعطى زخماً جديداً للقضية الفلسطينية في الدول الغربية. وفي خطوة مماثلة بدأت حكومة سلوفينيا عملية الاعتراف بفلسطين بعد تصويت البرلمان عليه في 13 حزيران/يونيو من هذا العام. كما صرحت استراليا في أبريل 2024، عن أمكانية الاعتراف بدولة فلسطين. ولا يمكن تجاهل موقف جنوب أفريقيا، حيث تبنّت كعادتها موقفاً ينسجم وكفاحها المرير ضد نظام الفصل العنصري الذي حكم البلاد قروناً، كما أعلنت بعض دول أمريكا اللاتينية من ضمنها كولومبيا وبوليفيا قطع علاقاتها مع إسرائيل، بينما استدعت دول أخرى سفرائها للتشاور، ألا يعد ذلك مكسب؟

3. اللافت في الأمر، كان السياق الإقليمي يسير نحو التطبيع العربي شبه الكامل مع إسرائيل وتأسيس نظام يكون فيه القيادة والريادة لدولة الاحتلال المدعومة أمريكياً، مع العمل على تصفية القضية الفلسطينية وإنهائها، وهو ما جاء في خطاب نتنياهو أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في أيلول/سبتمبر 2022. سوى أن طوفان الأقصى قطعت الطريق أمام كل ذلك وفوتت الفرصة أمام مشاريع التطبيع أو على الأقل الحد منها، في ظل تهافت بعض الأنظمة الرسمية العربية المتخاذلة والمهرولة نحو التطبيع مع إسرائيل، وفشل كل المبادرات لاستعادة حقوق الشعب الفلسطيني المشروعة في بناء دولته المستقلة وذات السيادة[1].

4. إن من النقاط المهمّة أيضاً لمعركة طوفان الأقصى، مرتبطة بمصير مستوطنات غلاف غزة على المدى البعيد، عدم عودتها لوضعها السابق، وربما يتم تفكيكها حتى وأن لم يتم الإعلان عن ذلك بشكل رسمي من قبل الحكومة الإسرائيلية، والأرجح أن يتم ذلك بعد الانسحاب من قطاع غزة، والبحث عن البدائل من خلال العمل على السماح لعدد من المستوطنين بالبقاء وتوفير مصادر الدعم عسكرياً وأمنياً واقتصادياً في محاولة من الحكومة الإسرائيلية لطمأنة المستوطنين وإبقائهم فيها. لكن ضعف الأجهزة الأمنية والعسكرية وإخفاقها في توفير الحماية اللازمة للمستوطنين سيدفعهم لعدم التفكير في العودة مجدداً، حتى بعد انتهاء الحرب الحالية.

5. نقطة أخرى جديرة بالاهتمام تتعلق بالأسرى، حيث عرضت المقاومة الفلسطينية مراراً عقد صفقة تبادل للأسرى مع الاحتلال الإسرائيلي عبر وسطاء ولم تجد تجاوباً في البداية. أما اليوم فالأمر مختلف، لأن لدى المقاومة عشرات الأسرى رفاة لجنود إسرائيليين ونظراً للضغوطات الداخلية التي تتعرّض لها حكومة نتنياهو من قبل أهالي الأسرى، لم يعد ممكناً تجنب عقد الصفقة وبحسب شروط المقاومة الفلسطينية وتنازلات صعبة من الكيان الإسرائيلي وهو ما يعني تعرَضه لضرر سياسي بالغ المستوى يتمثل في احتمالات إسقاط الحكومة الحالية وربما إنهاء المسيرة السياسية لعدد من قياداتها. وربما يمهد ذلك لسيناريو مشابه لما حصل بعد العدوان الإسرائيلي على لبنان عام 2006، حيث تم التوصل لاتفاق وقف إطلاق نار دائم بقرار متوازن من المنظمة الأممية، عندها يمكن الحديث عن هزيمة استراتيجية مدوية لإسرائيل في هذه المرة.

6. أخيراً، وليس آخراً، تسعى إسرائيل بكل قوة لطمس كل ما حققته المقاومة الفلسطينية من إنجازات والتغطية عليها، في الوقت الذي كرّست فيه السلطة الفلسطينية أيضاً جهودها للتقليل بما تحقق من مكاسب، بل ودفع الفلسطينيين إلى انتقادها وتحميل مسؤولية ما حصل من جرائم إبادة وجرائم حرب لمن كان وراء العملية (المقاومة الفلسطينية) وليس لمن نفذ تلك الجرائم (الكيان الصهيوني)، في

خطوة للتماهي مع الخطاب الإعلامي الإسرائيلي وأهدافه، سواء تم ذلك بقصد أو من غير قصد[1].

خاتمة

إن الحديث عن تراجع وربما انكفاء المشروع الصهيوني لا يعني بالضرورة زواله المادي الفوري، بل يشير إلى انهيار المنظومة الأمنية والنموذج العقائدي والسياسي الذي قام عليه هذا المشروع منذ تأسيسه عام 1948، والذي تمحور حول فكرة بقيت في أذهان وعقول القيادات السياسية والعسكرية الإسرائيلية بأنها القوة التي لا تقهر. فقد تم اختراق السياج الأمني الذي لا يخترق، وكسر هيبة الجيش الذي لا يقهر نفسياً واستراتيجياً، وهو ما يمثل الخسارة الأكبر للمشروع الصهيوني، لأنه يمس جوهر وجوده القائم على الردع والقوة المفرطة.

رغم الصورة المأساوية التي لا يمكن تجاهلها للوضع الفلسطيني القائم وتحديداً في قطاع غزة بعد إطلاق عملية طوفان الأقصى ورد الفعل الإسرائيلي على العملية، فإن هناك أيضاً معطيات وحقائق قوة لا يمكن القفز فوقها، ينبغي على الشعب الفلسطيني بكل مكوناته وباختلاف توجهاته أن يستثمرها ويستفيد منها في الدفاع عن وجوده ومقدساته، والبدء في مسار جديد، وهو ما يتطلب من السلطة الفلسطينية أن تعيد حساباتها من خلال تبني نهج المقاومة كخيار بدلاً من طريق التفاوض، واستخلاص الدروس من تجربة أوسلو التي أثبتت فشلاً ذريعاً في استعادة أياً من حقوق الشعب الفلسطيني المشروعة، بعدما ساد خيار الاستسلام لأكثر من ثلاثين عاماً. في حين أن المكاسب الاستراتيجية المتحققة من طوفان الأقصى في أنها أعادت طرح القضية الفلسطينية بزخم إلى واجهة الأحداث على المستوى الدولي، بدأت تؤتي أكلها بإعلان دول عدة من الاتحاد الأوروبي اعترافها بدولة فلسطينية مستقلة، بينما تبحث دول أخرى اتخاذ خطوة مماثلة، لهو خير دليل على المكاسب التي تحققت من وراء العملية.

لقد شكّلت حرب غزة مرحلة مفصلية في تاريخ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وأن نهايتها ستكون حاسمة ومصيرية لكلا الطرفين، صمود المقاومة سيكتب بداية النهاية

للمشروع الصهيوني، وهو مكسب ليس للفلسطينيين فحسب وإنما الدول العربية أيضاً. فالمكاسب الاستراتيجية على المستوى الفلسطيني تتجاوز الجوانب العسكرية إلى الجوانب الإدراكية والاستراتيجية، فقد نجحت معركة طوفان الأقصى في إخراج القضية الفلسطينية من دائرة الإهمال الإقليمي والدولي الذي فرض عليها لعقود مضت. كما أسهمت في توحيد الضمير الفلسطيني حول المقاومة، وهو ما أعاد شرعية النضال المسلح كأداة وطنية لتحرير الأرض، بغض النظر عن الانتماءات الوطنية الداخلية. أما المكاسب العربية والإقليمية تمثلت في إعادة تموضع القضية كـ "قضية مركزية" وإرباك التحالفات الإقليمية. أظهرت الحرب أن الأمن والاستقرار الإقليمي لا يمكن أن يتحققا دون معالجة جذرية لقضية فلسطين، مما يعني أن المشروع لم ينجح في تجاوز جدار المقاومة الفلسطينية.

وفي حال حققت إسرائيل الحسم النهائي لصالحها، فإن ذلك يعني تصفية القضية الفلسطينية واستمرار لصفقة القرن في ظل موافقة بعض الأنظمة الرسمية العربية على الانخراط في التطبيع المجاني مع إسرائيل، شعاره السلام مقابل التعاون. لأن صفقة القرن تستهدف دول الجوار الفلسطيني بالتوريط والتهجير، ولبنان والأردن تحديداً تقع ضمن دائرة أهدافه الأساسية، وينتظر اللحظة المناسبة للانقضاض عليهما، وعندها ستكون المنطقة كلها مستباحة أمام الصهاينة.

يمكن قراءة معركة "طوفان الأقصى" على أنها بداية فعلية لنهاية النموذج الصهيوني القائم على القوة والعنف المفرط .هذا النموذج فشل في: تحقيق الأمن المطلق وثبت أن القوة العسكرية والتكنولوجية وحدها لا يمكن أن تضمن الأمن في ظل احتلال قائم على مصادرة أراضي الفلسطينيين، وحرمانهم من حقوقهم المشروعة في بناء دولتهم المستقلة وذات السيادة.

بيد أن الحسم سيكون للطرف صاحب الرواية الغالبة والرؤية الاستراتيجية طويلة النفَس، فالمقاومة الفلسطينية ومن ورائها أهل غزة، برغم من كل ما جرى، فقد أثبتوا ذلك للعالم أجمع، أنهم أصحاب حق وإرادة، وكل تجارب التاريخ المعاصر شهدت

اجتثاثاً للقوى الاستعمارية ولم يحصل ذلك لأي حركة تحرر وطني واحدة، والشواهد على ذلك كثيرة.

الهوامش:

1- Avraham Burg, the end of Zionism, The Guardian, 15 Sep 2003, accessed on 12/5/2024 at: https://2u.pw/faEXf9o8

2. نهاد ذكي، 5 مؤشرات تخبرنا.. هل نشهد بداية النهاية للمشروع الصهيوني؟ الجزيرة نت، 2024/1/24، تاريخ الدخول 2024/5/6. https://2u.pw/evlLJKdM

3. أحمد يوسف أحمد، غزة تكتب التاريخ وتلهم العالم، المستقبل العربي، العدد 538، كانون الأول/ديسمبر 2023.

4. عبد الحي زلوم، هل سقوط المشروع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين حلم أم علم؟ وكالة وطن للأنباء، 2016/5/16، تاريخ الدخول 2024/5/8. https://2u.pw/21U7VxCS

5. ذكي، 5 مؤشرات تخبرنا، مرجع سابق.

6- Nathan Weinstock, The Impact of Zionist Colonization on Palestinian Arab Society before 1948, Journal of Palestine Studies, Vol. 2, No.2 (Winter, 1973), pp. 49-63. accessed on https://2u.pw/gRscLWnk.

7. زلوم، هل سقوط المشروع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين حلم أم علم؟ مرجع سابق.

8. ذكي، 5 مؤشرات تخبرنا.. مرجع سابق.

9. عقيد فرنسي متقاعد يتوقع اقتراب نهاية إسرائيل، الجزيرة، 2023/12/19، تاريخ الدخول 2024/06/11. https://2u.pw/eJTAlNy8

10. ذكي، 5 مؤشرات تخبرنا.. مرجع سابق.

11. المرجع نفسه.

12. رامز صلاح الشيشي، ميرنا محمد مطر، كيف كوّنت حرب غزة الرأي العام العالمي تجاه الصراع الفلسطيني الإسرائيلي؟ مركز دراسات الوحدة العربية، 13 نوفمبر 2023، تاريخ الدخول 2024/06/05. https://2u.pw/soON2wz

13. هآرتس: العد التنازلي لانهيار إسرائيل بدأ، الجزيرة، 2024/6/7، تاريخ الدخول 2024/6/8. https://2u.pw/gUw00YH1

14. المرجع نفسه.

15. محمد عبد الحفيظ الشيخ، آفاق القضية الفلسطينية في ضوء طوفان الأقصى: قراءة في خلفيات العملية ودوافعها وتداعياتها، المستقبل العربي، السنة 46، العدد542، نيسان/ أبريل 2024، ص: 50.

16. محمود محارب، الحرب وتهجير الفلسطينيين من قطاع غزة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 19 مارس 2024، تاريخ الدخول 2024/6/4. https://2u.pw/aUM5B81u

17. خالد شبيب، المشروع الصهيوني: قرن جديد من الصراع، المستقبل العربي، العدد486، آب/أغسطس 2019، ص: 27 ـ 30.

18. زلوم، هل سقوط المشروع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين حلم أم علم؟ المرجع السابق.

19. المرجع نفسه.

20. وديع عواودة، دولة الجوار الفلسطينية مصلحة إسرائيلية عليا، الجزيرة، 2005/7/16، تاريخ الدخول 2024/5/13. https://2u.pw/D41m3t7H

21. توماس فريدمان، يحذر إسرائيل من الزوال، الجزيرة نت، 2024/06/20، تاريخ الدخول 2024/06/21. https://2u.pw/T3dH8Awb

22. الشيخ، آفاق القضية الفلسطينية في ضوء طوفان الأقصى، ص: 50.

23. المرجع نفسه، ص:49.

24. المرجع نفسه، ص: 59.

25. باحثان أميركيان: ماذا حققت حماس من هجومها على إسرائيل؟ الجزيرة، 2023/12/19، تاريخ الدخول 2024/05/17. https://2u.pw/vlSpEW2p
26. محمد عبد الحفيظ الشيخ، القضية الفلسطينية أمام تحديات الانقسام والتطبيع ونتائج معركة طوفان الأقصى، دراسات شرق أوسطية، السنة 28، العدد107، ربيع 2024، ص:53.
27. حرب غزة.. ارتفاع عجز الميزانية الإسرائيلية 4.2% في 2023 بسبب الحرب، CNBC عربية، 11 يناير 2024، تاريخ الدخول 2024/05/17. https://2u.pw/XidYKsSl
28. خسائر اقتصادية قياسية.. ماذا لو طال أمد الحرب في الشرق الأوسط؟ العربية، 12 أكتوبر 2023، تاريخ الدخول 2024/05/17. https://2u.pw/AglGLMHF
29. نهاد ذكي، 5 مؤشرات تخبرنا، مرجع سابق.
30. زهير حمداني، طوفان الأقصى" ونبوءة الزوال والهروب الكبير من إسرائيل، الجزيرة، 2023/10/18، تاريخ الدخول 2024/05/17. https://2u.pw/4ql5yaQl
31. بعد عملية "طوفان الأقصى"370 ألف إسرائيلي يهربون من دولتهم، المدن، 2023/12/07، تاريخ الدخول 2024/05/17. https://2u.pw/ahvlvO7d
32. جورج كرزم، الهجرة اليهودية المعاكسة ومستقبل الوجود الكولونيالي، الطبعة الأولى، رام الله، منشورات الرعاة للدراسات والنشر، 2018.
33. بعد عملية "طوفان الأقصى"370 ألف إسرائيلي يهربون من دولتهم، مرجع سابق.
34. عبد الله معروف، لعنة العقد الثامن والنبوءات.. هل نحن على مشارف زوال إسرائيل؟ الجزيرة، 2023/11/19، تاريخ الدخول 2024/05/27. https://2u.pw/NOEK0n8Z
35. حمداني، طوفان الأقصى"، مرجع سابق.

36. محمد عبدالحفيظ الشيخ، ما بعد طوفان الأقصى: المخطط الصهيوني في غزة وسبل المواجهة، المستقبل العربي، المجلد 47، العدد549، تشرين الثاني/ نوفمبر 2024، ص: 48 . 50.

37. سعيد السني، صالح العاروري لماذا اغتالته إسرائيل.. وما التداعيات لهذه الجريمة؟ الجزيرة، 2024/1/3، تاريخ الدخول 2024/5/30. https://2u.pw/kbgLmwvG

38. حرب غزة.. ارتفاع عجز الميزانية الإسرائيلية 4.2% في 2023 بسبب الحرب، CNBC عربية، 11 يناير 2024، تاريخ الدخول 2024/05/17. https://2u.pw/XidYKsSl

39. نهاد ذكي، 5 مؤشرات تخبرنا، مرجع سابق.

40. الشيخ، آفاق القضية الفلسطينية في ضوء طوفان الأقصى، ص: 36.

41. معن بشور، ملحمة "طوفان الأقصى" حقائق ومهمات، المستقبل العربي، العدد 545، تموز/يوليو 2024. متاح على الرابط التالي: https://2u.pw/JSZIbNdo

42. بالخطابات والفيديوهات... كيف تفوقت المقاومة في توظيف الإعلام ضد الاحتلال؟TRT عربي، 19 ديسمبر 2023، شوهد في 2024/02/02. https://2u.pw/DPFIOsC

43."عملية طوفان الأقصى"، انهيار الاستراتيجية الإسرائيلية تجاه غزة، وحدة الدراسات السياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 12 تشرين الأول/أكتوبر 2023، تاريخ الدخول 2024/7/7. https://2u.pw/VH24QDY